واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر بعد الاستقلال

The reality of Anthropology in Algéria after indépendence

عبد الباقي غفور

جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان– الجزائر،

abdelbaki.ghaffour@univ-tlemcen.dz

تاريخ الإرسال: 2021-06-29 **تاريخ القبول**: 2021-12-12 **تاريخ النشر**: 2021-12-30

ملخص: إن الحديث عن الأنثروبولوجيا في الجزائر لا يعني الحديث عن أنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته، وإن كانت الجزائر أحد ميادينه الخصبة. فواقع الأنثروبولوجيا كتخصص لم يرق إلى المستوى المطلوب رغم التحول الملحوظ الذي تمر به في الفترة الأخيرة، خاصة بعد اعتراف أصحاب القرار السياسي بها، وبعد محاولة تبرئة ساحتها من كونها علم المجتمعات البدائية، أو علم بلا موضوع، أو أنها علم يخدم الأيديولوجيا الاستعمارية. ومع ذلك، فإن الحديث عن أنثروبولوجيا في الجزائر وبعد أزيد من ستة عقود من الاستقلال، هو في جوهره حديث عن أنثروبولوجيا ممكنة الوجود وليست موجودة بالفعل؛ كونها تنتقل بالجزائر من حالة موضوع أنثروبولوجي إلى جزائر تساهم في الإنتاج الأنثروبولوجي، من طرف أنثروبولوجيين جزائريين ومكونين في الجزائر.

الكلمات المفتاحية: الأنثروبولوجيا؛ موضوع أنثروبولوجي؛ إنتاج أنثروبولوجي؛ الجزائر، بعد الاستقلال.

Abstract : Talking about anthropology in Algeria does not mean talking about anthropology as a science in itself, although Algeria is one of its fertile fields. The reality of anthropology as a discipline has not reached the required level despite the remarkable transformation it has undergone in the recent period, especially after its recognition by political decision makers, and after an attempt to clear its name of being a science of primitive societies, or a science without a subject, or that it is a science that serves colonial ideology. However, talking about an anthropology in Algeria, after more than six decades of independence, is in essence a talk about an anthropology that can exist and does not actually exist. It moves in Algeria from the status of an anthropological subject to an Algeria that contributes to anthropological production, by Algerian anthropologists and constituents in Algeria.

Keywords: anthropology; Algeria; after independence; Colonial science; .anthropological subject;anthropological production

1- مقدمة:

يعد علم الأنثروبولوجيا من أهم العلوم التي قدمت للإنسانية دراسات ثرية وراقية وذات قيمة علمية، يرجع لها الفضل في البناء الحضاري والإنساني. كما يعتبر هذا العلم قاعدة أساسية ومرجعية علمية يلجأ إليها العلماء والباحثون من مختلف التخصصات بحثا عن الحقيقة وإثراء لأعمالهم، وباعتباره علما يدرس المجتمعات الإنسانية في الماضي والحاضر. وعلى رأي حسن شحاتة سعفان، فإننا لا نستطيع أن نفهم كثيرا من ظواهرنا ونظمنا وعاداتنا الاجتماعية وتقاليدنا، إلا إذا رجعنا إلى علم الإنسان ليعيننا على فهمها وفهم أصولها وماذا طرأ عليها.[1] (سعفان حسان شحاتة، 1966، ص3).

إلا أن الأنثروبولوجيا باعتبارها معرفة أكاديمية، ظهرت رقما مجهولا في الفكر الجزائري خلال العقود الأربعة التي تلت الاستقلال، ومن ثم بات أمرا ملحا بالنسبة للدوائر العلمية في الجزائر أن تؤسس لتوجه علمي وتطبيقي للأنثروبولوجيا في الجزائر حتى تحقق لنفسها مكانة تؤهلها لمواكبة تطور هذا العلم، وفهم واقع الإنسان الجزائري في كل أبعاده، والاستفادة منه عمليا.

إلا أن تحقيق هذا الأمر المهم، يتطلب الوقوف على أهم الأسباب التي أدت إلى هشاشة التجربة الجزائرية في حقل الأنثروبولوجيا بعد الاستقلال. ومن هنا، سنحاول الإجابة على السؤالين المحوريين التاليين: لماذا لم تحقق الأنثروبولوجيا لنفسها مكانة متميزة في حقل العلوم الاجتماعية بالجزائر؟ ألا يمكن لهذا البعث إلا أن يكون من خلال دراسة الآخر، على أساس أن الأنثروبولوجيا قبل كل شيء هي حوار مع ثقافة أخرى؟

2.لماذا لم تحقق الأنثروبولوجيا لنفسها مكانة متميزة في حقل العلوم الاجتماعية بالجزائر؟

في حقيقة الأمر هناك عدة أسباب حسب الكثير من الدارسين التي حالت دون تحقيق الأنثروبولوجيا لنفسها مكانة متميزة في حقل العلوم الاجتماعية بالجزائر، من ذلك:

1.2 اقتران علم الأنثروبولوجيا بالتوجه الكولونيالي الاستعماري:

إن فكرة اقتران الأنثروبولوجيا بالتوجه الاستعماري تعد من ضمن العوامل الأساسية التي أسهمت في تأخر اعتماد الأنثروبولوجيا كتخصص علمي ضمن المنظومة التعليمية في الجامعة الجزائرية، إذ أن من

المفارقات الأساسية التي يمكن تسجيلها ضمن هذا السياق هو وجود تشابك وتقاطع بين اهتمامات الدراسة الأنتروبولوجية من جهة والأهداف الاستعمارية من جهة أخرى، لكون إحدى أساسيات "البحث الأنثروبولوجي تكمن في دراسة الآخر، أو ما يعرف بالبحث في الغيرية "Altérité".[2] (آرني بيار، 1992، ص41) إذ مع سيادة النزعة التطورية في تفسير الظواهر خلال نشأة الأنثروبولوجيا، استقر لدى الأوروبيين أن الحضارة البشرية كلها تتطور حسب نظم وقواعد ثابتة وموحدة لا تتغير باختلاف المكان والزمان. وهذا يعني أن الشعوب البدائية تمثل المراحل الأولى في التطور بالنسبة للمجتمعات المتقدمة، لتكون بذلك صورة المجتمعات البدائية في إفريقيا وأستراليا وأمريكا أصلا حضاريا للشعوب الأوروبية المتقدمة. ويمثل هذا نوعا من "التبرير العلمي" لاندفاع الأوروبيين نحو فهم تركيبة وثقافة المجتمعات الأخرى، بما يظهر نوعا من التوافق بين الأنثروبولوجيا والاستعمار، بين أيديولوجية الاستعمار والأنثروبولوجيا.

ويرى "جيرار لكلرك" أن الأنثروبولوجيا تعمل على تسويغ الاستعمار وتقديمه كحتمية "علمية" غرضها إجلاء "البدائية" عن الشعوب المستعمرة وإدخالها في مسيرة التقدم.[3] (جيرار لكلرك، 1990، ص ص 36-37).

ولقد ارتبطت الأنثروبولوجيا في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية بالتوجه الكولونيالي، من خلال الدراسات الأنثروبولوجية التي قام بها عدد من الإداريين والضباط العسكريين ورجال الدين والأنثروبولوجيين المدفوعين من قبل الإدارة الاستعمارية بهدف التعرف أكثر على الخصوصية الثقافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، وتسليط الضوء على عاداته، تقاليده وأعرافه، الأمر الذي ساعدها في تكريس حكمها الاستعماري طيلة هذه الفترة.

لقد شكلت الجزائر بالنسبة للمستعمر الفرنسي ذلك العالم الغريب المجهول، لهذا وظف كل طاقاته البشرية والعسكرية والدينية لإخضاع الأهالي واستغلال خيرات البلاد.[4] (فيليب لوكان وجون كلود فاتان، 2002، ص8). لقد تطلبت عملية الإخضاع هذه ضرورة التعرف على العدو، نقاط ضعفه، عاداته

وتقاليده وأعرافه، قيمه الدينية والثقافية. وفي هذا الصدد يقول "رينيه مونيه" (R.Mounier):" إن لنا مصلحة نظرية وتطبيقية لنتعرف على حياة الشعوب الجزائرية، أولا لأنه من حقنا ومن واجبنا نحن الفرنسيين أن نعرف ونفهم جميع الشعوب التي نحميها ونذير شؤونها، ولا نتوقف أبدا عن القيام بالواجب نحوها، لما في تنظيم الدراسات من غايات مادية تطبيقية، باعتبار أن العلم مصدر للنفوذ والحكم."[5] (بوطالب محمد نجيب، 1990، ص438).

هكذا ارتبطت الأنثروبولوجيا الاستعمارية في تناولها للمجتمع الجزائري بأهداف وخطط الاستعمار الفرنسي الرامية إلى سلب الأمة الجزائرية هويتها وإحكام السيطرة عليها. لقد سخر علم الأنثروبولوجيا الاستعماري لتنفيذ سياسته المتمثلة في زرع بذور الفتنة والحقد والتفرقة بين أبناء الوطن الواحد.[6] (معتوق، جمال، 2000، ص81). ولقد شكلت الثنائية عرب-بربر محور اهتمام الدراسات الاستعمارية، باعتبار هذه الثنائية تمثل بالنسبة إليها مدخلا أساسيا لزرع بذور الشك والفتنة والشقاق بين أفراد الشعب الواحد. وبرز في هذا المجال المارشال "بيجو"(Bugeaud) حيث يقول:"سكان الجزائر ينقسمون إلى سلالتين متميزتين، السلالة العربية والسلالة القبائلية، وكلاهما يتبع الدين المحمدي، إلا أن طبائعهم وتكوين مجتمعاتهم بالإضافة إلى جذورهم التاريخية ولغتهم يشكلان قسمين متميزين، ونحن نسعى إلى فحصهما".[7] (معتوق جمال، 2000، ص36) وامتدادا لهذا، رسخ في ذهن الجزائريين سواء بتوجههم الرسمي أو غير الرسمي ارتباط الأنثروبولوجيا بالاستعمار كعلم استعماري، واقترن الحديث عن الأنثروبولوجيا في الجزائر غداة الاستقلال وبصورة رهيبة بأسئلة حرجة وصعبة وخطيرة، كادت أن تعصف بالكيان العلمي للتخصص نفسه كعلم أصيل وعريق، وبالتراث الشعبي الذي ظل موضوع مراهنات غير مسؤولة وغير علمية ظلت تلاحقه مدة من الزمن، حيث ناصب الموقف الرسمي هذا العلم العداء وغالى في التنكر له والإصرار على رفض اعتماده في الجامعة الجزائرية، وذلك بناء على معطيين هامين أولهما تاريخي كرس محاكمة هذا العلم على ماضيه البغيض في حق المجتمع الجزائري، وهو الذي ارتبط في المخيال المعرفي للنخبة الحاكمة بأنه علم استعماري سخرته المنظومة الكولونيالية الفرنسية لخدمة أغراضها التوسعية.[8] (سعيدي محمد، 2015، ص

6)كما تقره توصيات الملتقى الدولي المنعقد في شهر مارس 1971 في الجزائر، حول:" إصلاح وتقنية تعليم العلوم الاجتماعية وإشراكها في التطور الاقتصادي وإعادة هيكلتها"، والتي دعت إلى وجوب:" أن تتخلص العلوم الاجتماعية في البلدان التي استعمرت في القديم من منازعات الماضي الاستعماري، أين استعملت العلوم الاجتماعية – المقصود هو الأنثروبولوجيا-في هذه البلدان بطريقة علمية لتستعبد وتستلب وتزيل الهوية.[9] (نور الدين كوسة، 2012، ص4).

ومن هنا مثلت الفترة الممتدة ما بين 1971 إلى غاية 1983 ثورة حقيقية في مجال التعليم العالي عموما وعلم الاجتماع خصوصا، حيث أجري أول تعديل أو إصلاح جامعي عام 1971، أي أنه أعيد النظر في العملية التعليمية والتكوينية، بربطها بالمشروع التنموي الذي تبنته السلطة السياسية في تلك الفترة، والقائمة على فكرة الاقتصاد الاشتراكي المرتكز على مبدأ التخطيط في كافة المجالات.[10] (إبراهيمي الطاهر، 2006، ص63). وثانيهم إيديولوجي، عكس التخوف منه في ظل الاعتقاد السائد لدى النخبة الحاكمة كما ورد في لائحة الاتهام الموجهة إليه، بأنه يحمل دلالات إثنوية (Ethnicistes) ويكرس الانقسامية بين مكونات المجتمع الواحد، وهو ما يجعل منه عامل تهديد مباشر للمخزون الاثنوجرافي من خلال دعوته للجهوية وبحثه في موضوع الهوية المحلية، واهتمامه بطبيعة التركيب الإثني والثقافي لكل من بلاد القبائل والأوراس، وبدرجة أقل الميزابيون والطوارق، والذين كانوا يحتلون مكانة مهمة في الدراسات الأنتروبولوجية في عهد سابق.[11] (صالحي محمد إبراهيم، 2014، ص329). وهو ما يتنافى كلية مع الرؤية الرسمية الباحثة عن مشروع لإيديولوجيا وطنية تنزع فيه لإذابة نتائج العمل الاستعماري، حيث لا تمثل القبيلة واللهجات والأصول والممارسات الدينية وعادات الزواج والنظم التقليدية ولا أي موضوع آخر من مواضيع الإثنولوجيا أو الفونوغرافيا محل اهتمام إلا ضمن الاهتمام العام بالمجتمع الجزائري ككل في وحداته الوطنية المحددة تاريخيا لا في اختلافاته داخل هذه الوحدة.12 (يزلي عمار، 2004، ص85).

ففي مقال لـِ "عبد الرحمان موساوي" تحت عنوان:" La pratique de l'Anthropologie en Algérie" يرى أنه إذا كان علم الاجتماع قد تم تبنيه منذ الاستقلال من قبل الجامعة الجزائرية تحت غاية وضعه مشروع المجتمع، فإن الأنثروبولوجيا لم تعرف نفس الاهتمام أبدا، متهمة بأنها خدمت المشروع الاستعماري، فهي قد عاشت نكسة رسمية.

وخلاصة القول أن المشروع الأنثروبولوجي تم تعطيله خلال العقود الثلاثة التي تلت الاستقلال لأن الفكر النخبوي المؤطر للمجتمع الجزائري كان مسيّسا. فلم تكن الظروف سانحة لإرساء قواعد صلبة للأنثروبولوجيا في الجامعة الجزائرية لتدلوا بدلوها في فهم الإنسان الجزائري.

2.2 تأخر اعتماد الأنثروبولوجيا كتخصص علمي في الجامعة الجزائرية:

من الملاحظات التي تسترعي الانتباه من خلال الاطلاع على التجربة الجزائرية في ميدان الدراسات الأنثروبولوجية على وجه الخصوص، أن هذا النوع من الدراسات يشكو من قلة المتخصصين فيه، نظرا لحداثة وقصر المدة الزمنية له– الدراسات الأنثروبولوجية– ضمن الممارسة العلمية الأكاديمية داخل الجامعة الجزائرية في إطار بحوث وأعمال أكاديمية منظمة، وكذلك على مستوى الدراسات والأبحاث وحتى التآليف الفردية المستقلة في المحيط الثقافي العام خارج الجامعة؛ إذ لم تزد المدة الزمنية التي صارت فيها الأنثروبولوجيا كتخصص علمي قائم بذاته يدرس في الجامعة الجزائرية عن ربع قرن.

ففي البداية كانت الأنثروبولوجيا تنشط في مراكز ثقافية تحت تسميات مختلفة إلى أن تبناها ما يعرف بـ "مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية"(**CRASC**)، أين تتعايش ميادين متنوعة من العلوم الاجتماعية والإنسانية. من هنا فإن الأنثروبولوجيا التي طوردت منذ البداية لجأت إلى المراكز للائتمان والاحتماء بعلوم ذات علاقة. أما عودتها إلى مقاعد الجامعات فتعتبر محتشمة، حيث كانت تدرس كمادة فقط في بعض الاختصاصات، لتوضيح الخصائص الثقافية مثل جامعة تلمسان (ماجستير في الثقافة الشعبية) وفي تيزي وزو (معهد اللغات والثقافة الأمازيغية). وكانت مهمتها توضيح مفهوم "الثقافة الشعبية" الغامض والمعقد. وفي هذا الصدد يرى الأستاذ نذير معروف أن الأنثروبولوجيا كتخصص كان يراد

منه فقط تعزيز التراث والفلكلور واصطناع العلاقة القوية بينه وبين الهوية الوطنية، فيما يستثنى هذا التخصص من المشاركة في عمليات البناء والتنمية.

ولقد جاء الاعتراف بهذه المادة الدراسية مع تنصيب أول معهد وطني للثقافة الشعبية بجامعة تلمسان،[13] (مولاي حاج مراد، 2002، ص23). ذلك بناء على مرسوم صادر في 18 أوت 1984.[14] (سنوسي صليحة، 2005، ص86). وتجدر الإشارة أن اعتماد الأنثروبولوجيا لم يتم منذ البداية مع تنصيب معهد الثقافة الشعبية، بل جاء تتويجا لعدد من الخطوات والمراحل التي قطعها هذا المعهد؛ ففي البداية أوكلت له مهمة الاهتمام بالثقافة الشعبية بشكل عام كتخصص أولي، ثم جاء الاعتراف سنة 1990 بالأدب الشعبي كاختصاص قائم بذاته، لينتهي الأمر بالاعتراف بشعبة الأنثروبولوجيا.[15] (سنوسي صليحة، 2005، ص86).

وقد عرفت الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر مع بداية هذا القرن وثبة وانتعاشا مميزين بعد مرحلة التردد التي واكبت فترة الإقلاع خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي، حيث كان هذا التخصص مقتصرا على جامعة تلمسان دون غيرها من الجامعات الأخرى، وتوج هذا الانتعاش بفتح أقسام ما بعد التدرج – ماجستير–والدكتوراه–في كل من جامعتي وهران وقسنطينة، ثم تلتها خطوات أخرى تمثلت في اعتماد أقسام مستقلة في مرحلة التدرج في كل من المركزين الجامعيين بخنشلة وتبسة، وبالمركز الجامعي بالبيض في مرحلة لاحقة.

3.2 التبعية في مجال التصورات النظرية:

تقف مسألة التبعية في مجال التصورات النظرية الخاصة بالدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر، وراء هشاشة التجربة الجزائرية في هذا الحقل العلمي الجديد – الأنثروبولوجيا– ولا شك أن التبعية في مجال التصورات النظرية المتعلقة بالدراسات الأنثروبولوجية بشكل خاص والعلوم الاجتماعية بشكل عام ليست مشكلة تخص بلد كالجزائر وحسب، بل الأمر يتجاوز الحدود الإقليمية الضيقة ليشمل البلاد العربية ككل.

وما دامت الأنثروبولوجيا تعد من العلوم الغربية الحديثة، فإن انتقالها إلى بقية البلدان الأخرى ومنها الجزائر، ودخولها إلى حيز الممارسة العلمية قد جاء متأثرا بالقوالب النظرية الجاهزة للمدارس الغربية.

شكلت هذه الفكرة عائقا في إرساء دعائم الأنثروبولوجيا في الجزائر غداة استقلالها، والواقع أن هناك العديد من الدراسات الأنثروبولوجية الغربية التي جاءت مثقلة بالنزعة العنصرية والأهداف الاستعمارية، بل إن جل الأنثروبولوجيين الغربيين الأوائل، الذين باشروا في دراسة المجتمعات العربية الإسلامية والإفريقية، كان يحركهم هاجس أن الثقافة الغربية هي المرجعية الأساسية في فهم "الآخر" وأن تاريخ البشرية ما هو إلا امتداد لتاريخ أوروبا، وقد أصر البعض على عدم ذكر أي تاريخ آخر إلا بقدر ما يحمله من أثر مباشر على مصير الإنسان الغربي.[16] (أسد محمد، 1997، ص ص 17-18). وقد قيل أن الغرب أنيطت به مهمة حضارية، سماها الإنجليز مهمة الرجل الأبيض، والفرنسيون مهمة تغيير المجتمعات المتخلفة وتمدينها. وهو أصل قولهم بـ "المهمة التمدينية للاحتلال" فالغرب على حد تعبير "روجي غارودي"، ومنذ عصر النهضة، اختزل علاقة الإنسان بالطبيعة بعلاقة "التابع بالمتبوع".

لقد تم تصوير المجتمع الجزائري باعتباره مجتمعا متوحشا موغلا في البدائية، بما يسوغ للمستعمر أن يضطلع بمهمة أخلاقية حياله، وهي أن يعمل على تحضيره. فدينه يصبح وقتها مجرد خرافة، ولغته لهجة لا تكتب، وفنونه الراقية فولكلورا يشاهد.

إن عملية احتقار ثقافة الآخر المستعمَر هي بمثابة "تكتيك" لزرع الشك ولتيسير الإذعان والخضوع. فمثلما وصِف المجتمع بالجمود والتخلف، فإن التكوين الاجتماعي الجزائري قدِّم وكأنه من دون تاريخ من أجل نزع أية مسؤولية للمستعمر عن هذا الجمود،[17] (دياب محمد حافظ، 1999، ص304).بما يوحي بأن الاستعمار أتى فعلا لتمدين شعب لم يعرف الحضارة، بل لم يرق بعد للعيش من دون وصي، من هنا بالذات جاءت أسطورة التمدين، هذه الأسطورة التي حاول أن ينقشها "جيل فيري" مؤسس النظام التربوي الاحتلالي في الجزائر، والذي صرح أمام مجلس الشيوخ عام 1885 أنه: "يجب أن نقولها بصراحة لا غبار عليها، إن للأجناس السامية حق على الأجناس الدنيا ..لأن عليها واجبا تجاهها، لأنها هي

المسؤولة عن تمدنها." [18] (الطيبي محمد، 2009، ص217). ويبدو أن التمدين الذي يدعو إليه "جيل فيري" لا يعدو مجرد تطويع للآخر المستعمر وإخضاع ثقافته بما يجعله تابعا للسيد الأوروبي، فيرضى أن يتنازل له عن أرضه، ويهيئ نفسه ليكون خادما مطيعا. يبرر هذا القول ما أورده "فرحات عباس" في كتابه " ليل الاستعمار" عن الدكتور "بوديشون" الذي قال في كتابه "خواطر عن الجزائر" عام 1945: " لا يهم فرنسا أن تخرق في سياستها المقاييس الأخلاقية وقيمها، ولكن الذي يهمنا قبل كل شيء هو تأسيس مستعمرة نملكها بصفة نهائية، وننشر على الشواطئ البربرية المدنية الأوروبية."[19] (فرحات عباس، 2011، ص52).

من هنا فإن غالبية الدراسات الأنثروبولوجية الغربية لا يمكن أن تُقوَّم تقويما علميا، فهي من وجهة نظر "أكبر أحمد" لا تفتقر إلى المستوى العلمي الرفيع فحسب، وإنما تتميز أيضا بكونها متحيزة، تطغى عليها التصورات المسبقة والعداء للمجتمعات العربية والمسلمة.[20] (أكبر أحمد، 1990، ص 17-54).

4.2 الاهتمام بالعلوم الدقيقة على حساب العلوم الاجتماعية بفعل الحاجة إلى التنمية:

لقد اتجهت الجامعة الجزائرية بعد الاستقلال بفعل الحاجة إلى التنمية -وبحسن نية-نحو العلوم التقنية، في حين تم إهمال العلوم الاجتماعية والإنسانية ومنها الدراسات الأنثروبولوجية على وجه الخصوص، إذ لم تحض بنفس العناية والاهتمام الذي حظيت به العلوم الدقيقة والعلوم الطبيعية، وهو ما انعكس سلبا على مردودها ومستواها. فجزائر الاستقلال ورثت عن الاستعمار الفرنسي اقتصادا منهكا ومجتمعا متخلفا وحصيلة ثقيلة من المظاهر السلبية على جميع الأصعدة والمستويات، إضافة إلى النقص الفادح في الإطارات العلمية المؤهلة للنهوض بمشاريع التنمية وهيكلة الاقتصاد المنهك.

ووفق هذه الظروف كانت الحاجة إلى التنمية الاقتصادية بالدرجة الأولى وما يترتب عن ذلك من ضرورة الإسراع في تحسين الأوضاع، تقتضي إقحام الجامعة في هذه العملية، لأنها تمثل ركيزة أساسية في بناء الأفراد الفاعلين من خلال إعداد الإطارات الفنية والكفاءات العلمية؛ وقد انعكس ذلك بشكل مباشر

على برامج التكوين، إذ حظيت التخصصات ذات الصلة بالعلوم الدقيقة والطبيعية برعاية خاصة من قبل الهيئات القائمة على الجامعة، في حين كان يبدو أن التخصصات ذات الصلة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية ومنها الأنثروبولوجيا ليست ذات أولوية، إذ لم تنل الاهتمام كمادة دراسية في الجامعة الجزائرية "وبقيت كامنة لا تظهر إلا في مقاربات ثقافية لدراسة الظواهر السوسيولوجية." [21](مولاي حاج مراد، 2002، ص22).

5.2 انعدام الأمن في ميدان الدراسة:

إن انعدام الأمن في ميدان الدراسة يعد أحد الأسباب الأساسية التي أثّرت على تأخّر البحوث الأنثروبولوجية. فهذه الظروف الأمنية كانت عائقاً أمام الباحث الجزائري، مما عمل على عدم الاستفادة من التحولات الاجتماعية والثقافية التي شهدها المجتمع الجزائري خلال تلك العشرية. فلا يمكن أن ندرس المجتمع الجزائري بدون استنطاق الواقع المعاش ومعاينة التحولات ميدانيا. فالميدان هو مخبر عالم الأنثروبولوجيا الثقافية.

3. ألا يمكن لهذا البعث إلا أن يكون من خلال دراسة الآخر على أساس أن الأنثروبولوجيا قبل كل شيء هي حوار مع ثقافة أخرى؟

من المعلوم أن الأنثروبولوجيا تخصصت في بداية الأمر إبان الزحف الاستعماري في دراسة الثقافات الأجنبية، أي الخارجة عن نطاق الثقافات الغربية. حيث كان الفصل بين الباحث والمبحوث جليا على الصعيد القومي والثقافي.

كان الأول ينتمي إلى دولة غربية رأسمالية مصنعة، وغالبا استعمارية، في حين كان الثاني يعيش في قبائل أو مجتمعات تقليدية ومتخلفة، وجب اقتحامها بقوة السلاح في أغلب الأحيان في غمرة الحضارة الغربية. غير أن الأمور تغيرت مع أفول الاستعمار. حيث بدأ الكلام عن الأنثروبولوجي الأهلي (الأصلي أو الأصيل) أو الأنثروبولوجي في بلده أو وطنه أو مجتمعه. وقد أثار هذا الأمر تساؤلا مفاده: هل يمكن التأسيس لأنثروبولوجيا عربية من خلال الأنثروبولوجي الأصيل؟ بتعبير آخر، هل يمكن للأنثروبولوجي

الجزائري أن يكون أنثروبولوجيا في مجتمعه؟ تأسيسا على ما ذهب إليه بعض الرواد الأوائل ومؤسسي ومنظري الأنثروبولوجيا السابقين، على غرار "جيرمان تيون" (Germaine Tillon) التي ترى بأن الأنثروبولوجيا هي قبل كل شيء حوار مع ثقافة أخرى.[22] (Germaine Tillon, 1966, p11) فبالمواجهة مع الغير وقبوله كمشابه ومختلف في الوقت نفسه، تتولد الأنثروبولوجيا. فهم يرون أن الأنثروبولوجيا لا يمكن أن تكون إلا دراسة للآخر المختلف والبعيد عنا.

وفي هذا الصدد يقدم الباحث حسين فهيم في كتابه قصة الأنثروبولوجيا، فكرة عن تصور نادى به عدد من الباحثين، وهو ضرورة بداية جديدة في علم الإنسان يكون مصدرها بلاد العرب والمسلمين، والفاعلين فيها علماء من أبنائها يأخذون على عاتقهم مسؤولية دراسة مجتمعاتهم المحلية والأخذ بعين الاعتبار خصوصياتها الثقافية والاجتماعية وبأدوات منهجية تختلف عن خصوصيات الغرب وأدواته؛ فنظرة ابن البلد ومقاربته لموضوع بحثه ومرتكزاته ومنطلقاته النظرية والتطبيقية وربما حتى لنتائجه، ليست هي ذاتها لدى الأجنبي.[23] (فهيم حسين، 1986، ص196).

ومع أن هناك العديد من الباحثين والكتاب ممن تخصصوا في الدراسات الأنثروبولوجية، وأصبح لهم أثرهم الواضح على الدراسات الأنثروبولوجية في العالم العربي، وأصبح ما يقدمونه موضع اهتمام ويشكّل رافدا ربما مختلفا عن دراسات الباحثين الغربيين. إلا أن البعض يرى أن الباحث الغربي يتمتع بدرجة عالية مقارنة بالباحث المحلي، ذلك أن الظواهر المدروسة، كالظاهرة الدينية مثلا، تحدث في مجتمع غير مجتمعه، فإنه لن يتأثر بقبليات ومسبقات تحول دون رؤيتها مباشرة، فهو لا ينطلق من موروثات "محلية" تجعل بعض السلوكيات أو التفسيرات "منطقية" أو "طبيعية" كما قد يقع للدارس المحلي. كذلك يرى البعض أن الدارس الغربي غير مقيد بالعديد من الضغوط الثقافية والسياسية "المحلية" التي قد يجد الباحث المحلي نفسه مجبرا على أخذها في اعتباره.

وفي هذا السياق يرى "بيير بورديو" أن عالم الاجتماع لكونه يشتغل على موضوع هو طرف فيه ومتعود عليه، يخشى أن يسقط في فخين إثنين يشكلان معا أوهاما وهما: المعرفة المباشرة للعالم الاجتماعي كما هو معطى من قبل الحس المشترك، وبالتلازم فخ إدراك حتميات الظاهرة الاجتماعية من طرف فاعليها وشهودها.

وفي الإطار نفسه هناك من يرى أن "التشابه الثقافي المفرط" و"الاختلاف الثقافي المفرط" يشكلان عائقين في سبيل التواصل بين الباحث ومخاطبيه. ومن جهة أخرى تبين لمن قام بدراسة القبيلة التي ينتمي إليها وترعرع فيها، بعض العوائق المتصلة بموقعه الاجتماعي. فالألفة والتواطؤ اللذين يربطانه ببني قبيلته مثلا، جعلت الأجوبة عن أسئلته الميدانية جد مقتضبة، حيث كان يَفترَض "مُخبِروه" أنه يعرف كل شيء حول الحياة البدوية بحكم نشأته في القبيلة. ومن جانب الباحث نفسه يمكن لألفته بثقافة بلده أن تسوقه إلى إغفال أو عدم اكتراث بعادات وأفعال تعود عليها. على عكس الأجنبي الذي يكون أكثر فضولا لطرح الأسئلة، ربما اعتبرت ساذجة إذا طرحها ابن البلد. غير أن مكانة هذا الأخير لا تخلو أيضا من امتيازات. فالملاحظة من الداخل تسمح بمعاينة مباشرة لحالات اجتماعية حميمية يستحيل على الملاحظ الأجنبي أن يعيشها، علاوة عن فهمها.

إن ما ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار أننا نتحدث عن مختصين محليين دُرِّبوا وتم تأهيلهم للقيام بمثل هذه الدراسات مهنيا، ومن ثم فإن الاعتراضات السابقة محدودة التأثير، فالباحث المحلي على العكس من ذلك، لمعرفته لغة المجتمع والثقافة التي يقوم على دراستها، ولمعرفته بالخلفيات التاريخية والمعرفة العامة بمجتمعه من ناحية، ومعرفته بسبب شروط تأهيله العلمي بثقافة المجتمعات الأخرى، ربما كان أقدر على القيام بالعديد من المقارنات وكذلك تقديم العديد من التبصرات في دراسته. علما أن البعد المجالي والثقافي لم يعد مقياسا مطلقا لتحديد الأنثروبولوجيا. حيث أن الدور الأهم يبقى في إنتاج بحوث أنثروبولوجية في ظل الحوار والمناقشة التي تجمع مختلف الفاعلين، محليين كانوا أم أجانب، ضمن حقل علمي بكل تجانساته وتوتراته وتناقضاته. خاصة وأن الأنثروبولوجي "الأجنبي" بات يأخذ في الحسبان مثقفي البلد المدروس

وباحثيه الذين سيقرؤون وينتقدون كتاباته. كما أن الأنثروبولوجيين "المحليين" يضعون أسئلة تتجاوز الفصل القديم بين الغرب والمجتمعات المدروسة. وتبقى الأسئلة النظرية والمنهجية التي تطرحها تنوّع المكانات الثقافية والهوياتية للباحثين جديرة بالاهتمام والنقاش. إضافة إلى ما ذهب إليه "سرج جينيست" (Serge Genest) من أن التأهيل المهني للأنثروبولوجيين سيتجه بهم إلى تحقيق الالتقاء بين الذات والموضوع، باعتبار أن الذات هو الإنسان والموضوع هو موضوع البحث. وذلك عن طريق التماهي (Identification)، ذوبان الذات بالموضوع، التجلي عن الذات والعيش لحظة الإبداع بالنسبة للآخر، إذ ينظر كما ينظر ويعيش عاداته وتقاليده ليصل الباحث في النهاية إلى إنجاز معرفة داخلية، أي يفهمه كما يعيش من الداخل، ثم يخرج ليسلط الرؤية الخارجية، فهو ينظر إلى الذات من الداخل ومن الخارج فيحصل على معرفة حقيقية كما فعلت الباحثة الأمريكية "مارغريت ميد" (Marguerite Mead) التي أدت بها رغبتها في القيام بدراسة أنثروبولوجية عن الحياة في أستراليا للزواج من رئيس القبيلة والبقاء معه، ثم الانفصال عنه بعد انتهاء دراستها تلك.[24] (Serge Genest,1979, p436)

خاصة وأن الملاحظة بالمشاركة التي هي الطريقة التي يتبعها الباحث الأنثروبولوجي، ليست مجرد الملاحظة للظاهرة عن بعد، بل هو تقمص دور فعال في هذه الملاحظة، حيث ترتقي مشاركة الباحث إلى التعايش مع الظاهرة المدروسة من خلال معايشة مجتمع البحث، مع القدرة على الاحتفاظ بموضوعية التعامل معها؛ ويتوجب على الباحث أن يراعي زمان ومكان الملاحظة والمشاركة، فالأمر لا يتعلق فقط بالكتابة وأخذ نقاط، وإنما في قراءة ما هو مكتوب، كيفية صياغة وبناء الظواهر الملاحظة.

دائما فيما يخص الباحثين المحليين، لابد من الإشارة إلى باحثين أنثروبولوجيين غادروا مجتمعاتهم الأصلية، وأصبحوا فيما يمكن تسميته بحالة "ما بين الإثنين" (Etre entre-deux)، أي في تموقع بين مجتمعهم الأصلي والمجتمع الجديد المستقبل، مما قد يمنحهم فرصة النظرة عن بعد ومزاياها. علما أن تكوينهم متعدد ومتخصص في نفس الوقت. بالإضافة إلى انتقالهم بين عدة ثقافات، هذا الانتقال الذي

يمنحهم آفاق أوسع وأوفر للمقارنة. فخروج الباحث من مجتمعه الأصلي وملاحظة هذا الأخير من الخارج، لا يمكنه إلا أن يجعله أكثر انتباها للظواهر الأساسية في مجتمعه ودلالاتها المختلفة والمتباينة. كما يمنحه القدرة على تمييز بعض مظاهر ومعالم التغير التي حدثت أو تحدث في مجتمعه. حيث أن النظرة الخاصة به لمجتمعه مرتبطة بثقافته الخاصة، ولكن خروجه منه يجعل النظرة التي تظهر على أنها طبيعية تصبح "نسبية"، وهو ما يشجع على المقاربة المقارنة.

في المقابل يمكن للأنثروبولوجيين الجزائريين ذو أصل عربي أن يدرسوا المجتمع القبائلي أو الشاوي أو الميزابي (الإباضي) أو الترقي، أي مجموعة من المجموعات البربرية، أو بالعكس، كما فعله مولود معمري في منطقة القورارة.

فالمنتظر من الباحث الأنثروبولوجي الجزائري هو أن يتحول من باحث "أجنبي" إلى "باحث منتمي وناقد". مع العلم أن تفكير الإنسان العربي انطلاقا من سياقه الثقافي لا يعني الانغلاق على ثقافته تماما مثلما لا يعني التفكير انطلاقا من ثقافة الآخرين، فالبحث عن ماهية الإنسان العربي لا تخرج عن البحث عن الإنسان ككل.

إضافة إلى كل ما تقدم، لابد من التذكير بأن الأنثروبولوجيا على الرغم من أنها نظريا "غربية المنشأ والتطور، إلا أن العرب سبقوا الغرب في اكتشاف ثقافات الشعوب ووصفها ومقارنتها وسبر أغوار العلوم الطبيعية والاجتماعية ومناهجها العقلية والتجريبية، فمن منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر كانوا هم "عباقرة الشرق" كما يصفهم العالم المؤرخ "جورج سارتون"، وكانت اللغة العربية هي لغة العلم البشري.[25] (فهيم حسين، 1986، ص200). فرغم أن ميلاد الأنثروبولوجيا بالمعنى العلمي-الأكاديمي كان متزامنا مع اشتداد عود الثورة الصناعية في أوروبا، إلا أن الجذور التاريخية لها تمتد في العصور القديمة من خلال عمليات وصف ومقارنة الخصائص المختلفة للشعوب والأجناس، كالذي قام به "هيرودوت" اليوناني أو "ابن بطوطة" و"المسعودي" و"ابن خلدون" و"البيروني" وغيرهم خلال رحلاتهم المختلفة ومعايشاتهم لمختلف الأعراق البشرية، فقد تطرقوا لهذا العلم من قريب أو من بعيد رغم غياب

مصطلح "أنثروبولوجيا" في أيامهم. ومما يؤسف له، أن علم الاجتماع وعلم الإنسان قد وقفا مع انجازاتهم وإنجازات غيرهم، ولم يشهد هذا العلم بعدهم أي تطور إلى يومنا هذا.

4. الخاتمة:

لم تعد الأنثروبولوجيا اليوم تخشى المسار الاجتماعي الذي تشكلت من خلاله، ولا طابعها الهش، ولا حتى التحيز الذي طبع الدراسات الأنثروبولوجية الغربية، فهذه المسائل باتت من الماضي، ولا يتمسك بها إلا أولئك الذين لا يدركون أبعاد المتغيرات المعرفية والثقافية والاقتصادية التي تحدث في ظل العولمة.

فالحديث عن الأنثروبولوجيا صار ضرورة ملحة في خضم الصراعات الثقافية والحضارية التي تعيشها الشعوب والمجتمعات. ثم إن هذا العهد الجديد قد فتح المجال واسعا لإعادة النظر في الكثير من القضايا الفكرية، وجلب اهتمام الأنثروبولوجيون الجزائريون به، خاصة الشباب الأكاديمي الذين اكتشفوا فيه مادة خصبة لإبراز ثقافة الشعب الجزائري ماضيا وحاضرا.

فالأنثروبولوجيا ليست علما استعماريا كلها دوما وأبدا، فهي تدرس الإنسان كيفما كان وأينما وجد. اهتمت بالإنسان الجزائري كما الإنسان الفرنسي والأمريكي والأسترالي والمغربي والإنجليزي... وموضوعها الإنسان وقضاياه المعاشية. كما أنها لم تبقى حبيسة تلك الرؤية الضيقة التي حاولت أن تحاصرها وتسجنها حين جعلت منها علما خاصا بالمجتمعات البدائية والمتخلفة والمتوحشة. تحررت من هذه الرؤية واتسع مجال نشاطها لتشمل مجتمعات أكثر تقدما ورقيا وحضارة. كما أن الأنثروبولوجي المحلي – الأصلي- يملك من المؤهلات المعرفية والمنهجية والتقنية ما يسمح له بالتعامل مع موضوعه عن قرب ومن الداخل ومن الأعماق، وإبراز المخفي والمسكوت عنه؛ وهذا ما قد يساهم في التنمية وفي البناء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي والعقائدي بصورة مهمة وصادقة وذات حس واقعي.

5. قائمة المراجع:

[1]- سعفان حسن شحاتة، (1966)، علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، منشورات مكتبة العرفان، بيروت.

[2]- أربي بيار، (1992)، إثنولوجيا التربية، ترجمة: عدنان الأمين، معهد الإنماء العربي، بيروت.

[3]- جيرار لكلرك، (1990)، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة: جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2.

[4]- فيليب لوكان وجون كلود فاتان، (2002)، جزائر الأنثروبولوجيون: نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، ترجمة: محمد يحياتين وآخرون، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، الجزائر.

[5]- محمد نجيب بوطالب، (1990)، صورة العربي الآخر ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1.

[6]- معتوق جمال، (2000)، واقع وآفاق علم الاجتماع في المغرب العربي: الجزائر، أطروحة دكتوراه دولة (عمل غير منشور) قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر، الجزائر.

[7]- معتوق جمال، (2000)، لمحة تاريخية عن الممارسة في الجزائر: حالة معهد علم الاجتماع بالعاصمة، مجلة الدفاتر الجزائرية لعلم الاجتماع، دار الحكمة، الجزائر، (العدد1).

[8]- سعيدي محمد، (04 ديسمبر 2015)، الأنتروبولوجيا والتراث الشعبي في الجزائر: (تاريخ ومسارات)، على: http://www.jadaliyya.com/pages/index/23319 (يوم 2021/06/15).

[9]- كوسة نور الدين، (ديسمبر 2012)، إشكالية المصطلح في الدراسات الأنثروبولوجية رصد للتمظهرات ومساءلة في علل الإضراب: التجربة الجزائرية نموذجا، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس، سطيف، الجزائر، العدد 16.

[10]- الطاهر ابراهيمي، (نوفمبر 2006) نحو علم الاجتماع لما بعد التعددية السياسية في الجزائر في الدواعي والإمكان (رؤية تحليلية)، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر.

[11]– صالحي محمد ابراهيم، (2014)، الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الدينية في الجزائر: عناصر من أجل حوصلة المعارف، ورقة بحث مقدمة ضمن أشغال الملتقى الدولي حول: مستقبل العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، تحرير: ساري حنفي وآخرون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2014.

[12]– عمار يزلي، (2004)، الجزائر والأنثروبولوجيا: المناهج والموضوعات، ورقة بحث مقدمة ضمن أشغال الملتقى الوطني حول: علم الاجتماع والمجتمع الجزائري، تحرير: عبد القادر لقجع، دار القصبة للنشر، الجزائر.

[13]– حاج مراد مولاي، (تيميمون 22، 23، 24 نوفمبر 1999)، مكانة التحقيق الميداني في الدراسات الأنثروبولوجية، أعمال الملتقى الوطني "أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر"، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر، 2002.

[14]– سنوسي صليحة، (2005)، إحصاء مناقشات رسائل الدكتوراه والماجستير بقسم الثقافة الشعبية بجامعة الجزائر، مجلة التراث، وهران، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، (العدد الخامس).

[15]– المرجع نفسه.

[16]– أسد محمد، (1997)، الطريق إلى الإسلام، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت.

[17]– دياب محمد حافظ، (1999)، علم الاجتماع في الجزائر: الهوية والسؤال، ضمن كتاب جماعي بعنوان: الأزمة الجزائرية، الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2.

[18]– محمد الطيبي، (2009)، الجزائر عشية الغزو الاحتلالي، دراسة في الذهنيات والبنيات والمآلات، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1.

[19]- فرحات عباس، (2011)، ليل الاستعمار، ترجمة: أبو بكر رحال، دار الجزائر للكتب، الجزائر.

[20]- أكبر. س أحمد، (1990)، نحو علم الإنسان الإسلامي: تعريف نظريات واتجاهات، ترجمة: عبد الغاني خلف الله، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ط1.

21- حاج مراد مولاي، (تيميمون22، 23، 24 نوفمبر 1999)، مكانة التحقيق الميداني في الدراسات الأنثروبولوجية، أعمال الملتقى الوطني "أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر"، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر، 2002.

[22] - Germaine Tillon,(1966), Le Harem et les cousins, éditions du seuil, Paris.

[23]- حسين فهيم، (1986)، الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

[24]- Serge Genest: (1979), Recherche anthropologique : techniques et méthodes, in Perspectives anthropologiques ; Un collectif d'anthropologues québécois, chapitre 19, pp. 333 à 344 : Les éditions du Renouveau pédagogique, Montréal.

[25]- حسين فهيم، مرجع سابق.